من الأدب الإسباني

واحة النخيل

للكاتب ألبرت حولا

ترجمة

د. أشرف اللغميش

مسرحية

إلى أمي **مونسي باسكوال**، و أبي **خوسي طولا**.

"لا أجمل من بصمة الأشواق الكامنة إذا برزت من كمين القلوب"

فريد الدين العطار، كتاب منطق الطير.

طائر القُبَّرة

﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاء ﴾

قرآن -سورة النحل، الآية 79.

تقودني الريح إلى المكان. السماء من صفائها تبدو وكأنها بيضاء اللون. يتحلق جمع من الناس في دائرة حول رجلين. يقترب منهم رجل شيئا فشيئا، الرجل يمتطي حصانًا، وتسير بجانبه مجموعة من الجند على الأقدام. يبدو أن الجميع ينتظره. داخل الدائرة، أحد الرجلين أصغر سنا من الآخر. لا يستطيعان النظر إلى بعضهما البعض، لأن الأصغر يتقدم الأكبر ببضعة أمتار، مسافة كافية للسياف لينفذ فيهما القصاص بسيفه الكبير. بمجرد وصول الرجل الراكب، يفسح له الحشد مكانًا. تحوم عاصفة رملية صغيرة حول أشجار النخيل. ثم تسمع همسة ناعمة. فضربة جافة. يقفز رأس الأصغر سنا على بعد بضعة أقدام من جسده. يطير الدم ويلطخ أقرب نخلة. هناك من يبتعد لتجنب الدم. امرأة شابة، تحمل طفلاً، تهرول مبتعدة. شاب آخر يتمعن مشهد الدماء ويهمهم بكلام مبهم. ثم همهمة أخرى، بالكاد تسمع. يظل الرجل الأكبر سناً بلا حراك. ترفع امرأة تغطي وجهها بالكامل، يديها إلى وجهها. ضربة حادة أخرى. يقفز رأس الرجل الثاني في اتجاه مختلف. ويغطي الدم رداءه الأبيض بالكامل. ينظر الرأسان في اتجاهين متعاكسين. يجثو الرجل ذو النصل المعدني على ركبتيه. حينها، يبتعد الرجل على حصانه مع حاشيته ويتفرق الحشد. يتمتم الرجل الراكع بجانب الجثث ويهمهم الشاب الآخر والمرأة ذات الوجه المغطى. ويبقى النور والغبار والصمت. انتهى الكلام.

حسرة

عسى هامتي في القبر تسمع بعضه بترجيع شاد أو بتطريب طارق

فلي في ادكاري بعد موتي راحة فلا تمنعونيها علالة زاهق

وإني لأرجو الله فيما تقدمت ذنوبي به مما درى من حقائقي

ابن شُهيد الأندلسي

اسمي حسن عبد الله العربي الطائي. زوجتي أم أشرف ليلى عبد الرحمن الوراق -أغدق الله عليها نعمه وسلامه. اسم ليلى يوحي للّيل، وكأنه ليس من نصيبي غير الظلام. في الحقيقة، أصبح الليل فعلا يشكل جزءا أكبر من حياتي مقارنة منه بالنهار. كنت أنا من اختارها من بين الأسماء الممكنة التي قدمت لي للزواج. كنت محظوظا. أحببتها لدرجة كبيرة، ربما إذا نظرت إلى الوراء، تكون ليلى أحد النجوم القليلة التي أضاءت سمائي. لكن نجما واحد قلّ ما يضيء. لا يمكنك العيش طويلا في الليل فقط.

أنا وليلى نعيش في رفاهية محتشمة، جدران بيتنا البيضاء مرصعة. يوجد أيضًا لدينا سجاد على الأرض. أنا موظف لدى الملك، أنا جزء من الإدارة، وأنتمي إلى مجموعة صغيرة من السكان الذين يمكنهم القراءة والكتابة. لدي مكتبة صغيرة من الكتب التي نسختها بنفسي مع زوجتي. نجلس كلانا ليلاً للنسخ لإثراء مكتبتنا.

في السنوات الماضية، كان العمل على مؤلَّفي هو شغلي الليلي، حتى التقيت بطاهر المغربي الطنجي -أمطره الله برحمته. مكتبي يطل على الفناء، وأنا أحب بشكل خاص رائحة التراب المبلل، أشعر بالارتياح عندما يفاجئني المطر وأنا أكتب. كنت دائما بحاجة إلى الاستئناس بالعديد من الأصوات حتى أصغي إلى صوتي الذي لم يكن سيلًا مدويًا يفرض نفسه بين الأصوات العديدة الأخرى. كان علي استخراجه بمشقة الانفس بين

سطور وكتابات الآخرين. لست شاعراً، على الرغم من أني أستمتع بكتابة الأبيات، بل إن بعضها يزين أحد جدران القصبة. جمعت مئات المخطوطات التي نسخناها معًا في كتاب للتاريخ، تمامًا كما تشكلُ الروافدُ المختلفة نهرًا عظيما. موضوع مؤلَّفي سقوط قرطبة، وتفكك الأندلس إلى ممالك لطوائف مختلفة. لا تندمل ندوب أمتنا أبدا فالممالك المسيحية تستغل ضعفنا للهجوم المضاد أثناء حصارها المستمر... بينما أحكي هذه الأشياء، أتذكر كيف قطع السيف رقبتي. أنا لا أتذكر الألم. بالكاد أتذكر الشمس والغبار والأقدام على شبكية عيني. وفي انعكاس السيف، أتذكر سطوع أبواب الجنة. أو هكذا آمل.

أجدني جاثيا على ركبتي فوق الرمال، وحولي يصرخ الجنود. في الخلف، يعكس هدوء أشجار النخيل جزءًا مني، يحجبه بقية المشهد. جسدي يعاني كثيرا. كنت أعرف العواقب، يا للغباء. إنه موت لا طائلة منه. سأضطر إلى الابتعاد عن زوجتي التي أحبها. وعن مؤلف التاريخ، عمل حياتي. أشعر بالحسرة، سيبقى الكتاب دون اكتمال. سوف يضيع جهدي هباء منثورا. ليس كبرا أو غرورا معاذ الله، لكنني أعتقد أنه من الضروري فعل شيء لإبطال هذه العملية. كان كتابي ليكون محفزا لبزوغ أمل في منتصف الانهيار، أو على الأقل منقذا من انهيارات أكبر في أمتنا. أسوأ ما في الأمر أنني لن أرى ابني أشرف يكبر أمامي ولا بناتي: حفصة ومريم. يمتزج صفير عاصفة رملية بين أشجار النخيل مع صليل السيف. كيف وصلت إلى هنا؟ ما الذي حدث بالفعل؟ للحظة يبدو وكأنني لا أعلم. لكنني لا يسعني إلا أن آسَفَ على نفسي لأنني أعرف حتى أدقَّ التفاصيل.

نهارا، يستطيع طاهر مقاومة كل العواصف. لكنه ليلا، يمكن لنسيم بسيط أن يطفئه. لقد عرفته أكثر في الليل. لذلك حسبته أكثر هشاشة مما هو عليه في الواقع. على الرغم من أنني كنت قد سمعت عنه الكثير، لكنني رأيته لأول مرة في السوق. كان منحنيًا، يلتقط بعض الكمثرى. يُرى عليه أثر التعب، واضح أنه من أولئك الذين كُتب عليهم العمل تحت الشمس. كانت بشرته داكنة. وشعره أسود أشعث، وحاجباه مرتفعتان مثل قبتين سماويتين، وجسده طويل ورقيق مثل يوم اعتكاف، عيناه عكستا مثل مرآة كل الليالي التي سنقضيها معا. لم تكن تلك

العيون داكنة تمامًا: بدا وكأن شذراتٍ من الضوء قد التصقت بقزحيته. سقطتْ هذه الشذرات على عيني فأحرقتهما كالجمر، وأصابتني بالعمى، عمى الحب. كان عُمره غير واضح للعيان، لكنه بالتأكيد كان أصغر مني. رأيت في وجهه أنه متزوج. لا أعرف كيف لكن فراستي تملي ذلك. هناك أشياء يعرفها المرء دون أن يعرف لماذا أو كيف؛ أحمد الله أنها ليست بالكثيرة، الامر يتعلق بالأشياء المهمة فقط.

يأتي يوم يحتم عليك أخذ حاجياتك والهرب. قلة لديهم الشجاعة لفعل ذلك. إنهم يعتقدون أنهم لن يكونوا محبوبين بعدها، بينما في الواقع، ربما سيكونون أكثر من ذلك بكثير. هناك دائما أناس أخرون وراء الديار. وحياة بعد الفيافي والقفار. ماذا لو كان أولئك الناس من يشبهونك أكثر؟ واحد يشبهك و أنت شاب. واخر يشبهك في كبرك. قد يكون لديهم وجه مختلف لكن نفس العيون أو نفس الشفاه. أو مجرد تشابه في حركات اليد، أشياء كافية لتعرف أنك كنت محقًا في الخروج، وأنه أمكنك الرحيل في الوقت المناسب، عليك ألا تعود أبدًا للوراء. لتكن دائما وجهتك نحو المقدمة، نحو واحة النخيل السرية، حيث تطوي العواصف الرملية أكثر الأوامر حميمية. في السوق نظر طاهر إليّ خفية. احتوت عيناه بريق الليالي القادمة في البساتين. نادرا ما يمكنك أن تقرأ في عيون الآخرين مصيرًا لن يجرؤ هو نفسه على النظر إليه في المرآة. لكن لو كان المرء يعرف مستقبله، لربما فعل الأخطاء نفسها. كنا نلتقي ليلا في البساتين خلف أسوار المدينة. لم يسبق لي أن ذهبت إلى ذلك المكان. ذكرى نور تلك الأقمار تجعلني أفكر في أبيات أحبها الملك:

أيها الأسمر، سمرته ألغاز القدماء

لذراعي المتعبتين شاطئك شفاء

لقاء يتيم كان كافيا وزيادة

كشف العالم جوهره وزاده

بين الحين والآخر، تعوي عاصفة رملية في بستان النخيل بأسماء سرية أنا وهو الوحيدان القادران على فهمها. من بعيد، رأينا أيضًا بعض الظلال التي بدت وكأنها تنتمي إلى عالم ما وراء الأحلام. أخبرني طاهر أنها أرواح ليلية. علمت أنها مخلوقات مثلنا من طينة أخرى، ربما حفظة أناس آخرين كانوا في الواحة؟

كنت قد توليت منصبًا مهمًا في حكومة الملك، بعدما مات الكثير من النخبة التي تجيد القراءة والكتابة في الحروب. أنا لم يكن علي الذهاب للحرب، سيدي الملك حماني... لقد تحصنت بمعرفتي بعلم التنجيم من خوض الحروب. كنت قد توقعت أن الملك من سيحكم، في وقت كان يبدو ذلك مستحيلا. بعدها، أحاطني بالتشريف والعطايا. واسفاه، لم أفلح بتنجيمي أن أرى أنه في الواحة، سيكون إعدامي.

حتى عهد المرابطين، لم يكن ما نفعله غريبًا في البلاط. الفرق أن الملك فضل عبيد المستعربين، المسيحيين منهم خاصة، ونحن كنا مسلمين. لا شيء اخر. بل أنني كنت قد تغنيت أمام الملك بأبيات باخوس عن الغلمان في القصر. كانت الحرب من حظنا. وأصبحت الأمزجة متوترة. أصبحت زوجتي أكثر صمتًا، وأكثر قربا، كانت الظل الذي يراقبني في البساتين. إذا كان لهذا الموت من حسنات، فهي أن علمت أنني أهل للحب. لم أعرف كيف أحافظ عليهما جيدا، كماء في صحراء. أحببت كليهما دون أن أفهم مصدر الحب هذا، بغض النظر عن خفقان صدري، بما يتجاوز كل منطق أو حس سليم. كل ما علمني إياه أساتذتي كان صحيحًا. ذهبت إلى المركز، وفي الوسط أحرقت.

زوجة طاهر اسمها عائشة بن عباد الثقفي – سلام الله عليها -لا أعرف رأيها في هذا الأمر. كل ما أعلم هو أنني لما كنت أقابلها في المدينة، كانت تتبعني بعينيها، بينما تقودها الخطوات بعيدًا. لا أعرف ما إذا كانت تعلم.

كنت ألتقي بطاهر كثيرًا. كنت ساذجا حينما اكثرت عليه من أن نرى بعضنا البعض. قال لي ذات يوم:

- لقد أخبرت عائشة أنني أساعد موظفا لدى الملك في رسم خرائط رحلاته، لكن عيناها تبللتا بالدموع كما لو أنها تعرف الحقيقة.

أتذكر أن ليلى ذهبت فجأة مع خادمنا مويحة لزيارة بعض الأقارب في إشبيلية.

"-اشتقت لعائلتي، سأبقى معهم لبضعة أيام "هكذا قالت ليلى، حتى لا تقول إنها منزعجة من عودتي للدار متأخرا كل ليلة، والتراب على ملابسي.

لم يكن يجب أن آخذ طاهرا إلى المنزل عندما غادرت. على فراشها التي حملت فيه بأطفالي، غسلت قدمي طاهر وقبلتهما وقلت:

- أقسم أنني سأحبك دائمًا فوق كل شيء.

- وأنا كذلك أقسم أيضًا أنني أحبك فوق كل شيء وكل شخص.

لم يبتسم أي منا. طغى شكل عميق من المعرفة على رغبتي في المعرفة، مما دفعني إلى اليأس الذي لم أجد له علاجًا في أي كتاب؛ من الممكن أن مكتبة من المكتبات أنارت طريقي قبل معرفتك، لكن بعدك عرفت روح العالم من خلالك.

لم أتخيل أبداً أنني سأعامَل مثل ما عاملني به جنود صديقي الملك. أخذوني من شعري وقادوني في مذلة يطوفون بي جميع أنحاء المدينة. لحسن الحظ، جاءوا للبحث عني في القلعة، وليس في المنزل: لم أكن لأتحمل العار في عيني ليلى. في الشوارع، أغمضت عيني بنفسي حتى لا أرى أعين الآخرين ونظراتهم. لم أرى ملكي العزيز بين الحشد إلا قبل وفاة صديقي مباشرة. عندما وصلت إلى البساتين رأيت طاهرا على ركبتيه وسط الجنود. كانت يداه مقيدتان مثلي. لقد بصقوا عليه بسببي.

تعرفت على عائشة، زوجة طاهر، وطفلها بين ذراعيها. صورة الفتاة التي لن تعرف والدها تعصر ذهني. كما رأيت شقيق عائشة، تلميذي، خالد بن عباد الثقفي -أعاننا الله على فهم أسبابه -يتأمل المشهد وسط الجنود. لم يسقط رأس طاهر بعيدًا عن الأرض. في تلك اللحظة بالذات، حلق طائر، أكبر حجما من الطيور المألوفة عندنا، فوق بستان النخيل. بعدها حان دوري. كم تمنيت أن لو كنت الأول. كان عقابي أكبر لكوني الأكبر سناً وكوني موظفًا حكوميًا. أمكنني القراءة والكتابة. كان عقابي الأكبر من موتي أن أراك تموت.

لقد اختبرت العقوبة بكل أبعادها. عانت روحي حتى استنفدت معاناتها. كل هذا كان غبيًا وعديم الفائدة. لن أرى صديقي مرة أخرى. في مملكة السماء، أنظر حولي طوال الوقت ولا أجده. ولا يمكنني تذكر أي سطر من كتاب التاريخ الخاص بي. أنا أعيش فقط مع هذه الصور. تطفو بين أنوار أجنحة الملائكة والصراخ الذي يسمع من بعيد.